مقدّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على حبيبه ومصطفاه، سيدنا محمد بن عبد الله، إمام الدعاة، وأسوة المعلمين الهداة، ورحمة الله المهداة، ونعمته المسداة، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فلم يكن في نيتي أن أكتب كتاباً كاملاً عن الشيخ الإمام محمد الغزالي، فأنا أتهيّب الكتابة عن الأئمة والمصلحين الكبار، وخصوصاً بعد أن سمعت الشيخ مرة يقول: لا يكتب عن الأئمة إلا إمام. قال هذا تعليقاً على كتب الشيخ محمد أبي زهرة عن الأئمة الفقهاء الكبار: أئمة المذاهب وابن حزم وابن تيمية.

وقد أخذ الشيخ هذا المعنى من الأستاذ العقاد، الذي قال في مقام الحديث عن عبقرياته المتعددة التي كتبها: إنه لا يحسن الكتابة عن العباقرة إلا عبقري!

ومن لي بالإمامة أو بالعبقرية حتى أكتب عن إمام وعن عبقري مثل الغزالي؟

ولكني بدأت هذا الكتاب على أنه مقالة عن الشيخ، ضمن كتاب يُهدى إليه ــ حفظه الله ــ بمناسبة بلوغه سن السبعين من عمره المديد المبارك إن شاء الله، وذلك في عام ١٩٨٧م.

وكانت هناك مجموعة من مريدي الشيخ وأحبائه[1] ــ وأنا منهم ــ تنادوا أن

---

(١) منهم: د. أحمد العسال، و د. محمد عمارة، و د. عبد الحليم، و د. جمال عطية، والفقير إليه تعالى.

يصدروا هذا الكتاب، وقسموا موضوعاته على عدد من المفكرين والكتّاب، وكان عليّ أن أكتب مقالة عن الشيخ من خلال معرفتي به ومعايشتي له.

وطفقت أكتب المقالة المطلوبة، فإذا هي تتسع أمامي، وتزداد صفحاتها أكثر مما يحتمله حجم الكتاب المنشود، وقد وجدت محال القول ذا سعة، فتركت نفسي على سجيتها، وأطلقت لقلمي العنان، وقلت: لا بأس أن يكون هذا كتاباً عن الشيخ الإمام، فهذا بعض حقه على من عرفه. وأكد هذا التوجه لديّ: أن الكتاب الذي افترض اهداؤه إلى الشيخ لم يصدر، على عاداتنا في معظم الأعمال الجماعية، قلما تنجح وتؤتي أكلها، ولم يف بوعده إلا الدكتور محمد عمارة، والدكتور عبد الحليم عويس[1]، فقد أنجزا مقالتيهما وأصدراها في رسالة عن الشيخ، جزاهما الله خيراً عما صنعا.

وانتهت المقالة إلى هذه الدراسة التي أقدمها اليوم عن الشيخ في فصولها العشرة:

١ ــ الغزالي الشاب في قلب المعركة.
٢ ــ الغزالي وحسن البنا.
٣ ــ الغزالي وحسن الهضيبي.
٤ ــ الغزالي وثورة ٢٣ يوليو.
٥ ــ الغزالي رجل الدعوة.
٦ ــ الغزالي رجل القرآن.
٧ ــ الغزالي مع السيرة والسنة.
٨ ــ الغزالي والفقه.
٩ ــ الغزالي مصلحاً ومجدّداً.

---

(١) وقد كتب بعض الأفاضل من غير المستكتبين ــ كالدكتور عماد الدين خليل، والدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور محفوظ عزام ــ مقالات عن الشيخ الغزالي ضمن كتاب أصدرته دار الصحوة عن الشيخ الغزالي. (ع.ع).

١٠ ــ الغزالي رجل المواقف.

بالإضافة إلى الخاتمة.

وليس هذا الكتاب تاريخاً للغزالي، فلا أزعم أني أملك كل أدوات المؤرخ، ولا أملك المعلومات الكافية لمثل هذا العمل، وأنا أعلم أن الشيخ ــ بارك الله في عمره ــ قد كتب قصة حياته، وأسأل الله أن يمد في عمره في عافية وتوفيق وبركة حتى يضيف إلى كتابه فصولاً وفصولاً، كما أرجو أن يوفق الله بعض أبنائنا الدارسين في أقسام الدعوة وغيرها أن يقدموا في أطروحاتهم العلمية دراسات ضافية عن الشيخ وعطاءاته الخصبة والمتنوعة، بما يليق بمكانة الشيخ العلمية والدعوية والإصلاحية.

ما أقدمه اليوم إنما هو ذكريات وخواطر وأفكار، تحاول أن تقدم صورة للشيخ الإمام، صادرة من معرفتي به، ومعايشتي له، وقراءتي وسماعي له، نحو نصف قرن من الزمان.

أجل، لست أؤرخ للغزالي، فما أنا بالمؤرخ، ولكني أشير إلى ملامح من حياته وسيرته، عرفتها من معايشة وقرب، ولا أزعم أني رسمت له صورة بينة الملامح، فما أنا ممن يحسن الرسم.

وربما قيل: إنك تكتب بقلم المحب لا بقلم الناقد، وأنا أشهد أني أحب الغزالي وأتقرب إلى الله بحبه، ولكني لم أعْد الحق فيما خط قلمي، ولا ينبغي أن يغمط الإنسان من يحب، فراراً من أن يتهم بالتحيز، فالعدل يحكم القريب والبعيد، والصديق والعدو ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وإني لأنكر على الإسلاميين أنهم لا يعطون مفكريهم وعلماءهم وأدباءهم ما يستحقون من تكريم وتقدير، ينزلهم منازلهم، في حين يصنع العلمانيون والماركسيون هالات مكبرة حول رجالاتهم، حتى يجعلوا من الحبة قبة، ومن القط جملاً! وصدق فيهم قول الشاعر:

وبقيت في خلف يزيِّن بعضهم بعضاً ليدفع مُعْور عن معور!

وإذا قيل: إنك تنظر إلى الشيخ بعين الرضا، وعين الرضا لا تبصر العيوب، فحسبي أن أقول: إني لا أزعم أن الغزالي مبرأ من العيوب، فما هو بالملك المطهر، ولا بالنبي المعصوم، وإنما هو بشر يخطىء كما يخطىء البشر، ويصيب كما يصيب البشر، ولكن أخطاءه وزلاته مغمورة في محيط حسناته وميزاته.

و «إذا بلغ الماء قُلَّتين لم يحمل الخبث»، فكيف إذا كان بحراً لا تكدره الدلاء؟!

الدوحة: ربيع الآخر ١٤١٥ هـ
أكتوبر ١٩٩٤م

يوسف القرضاوي